تلمسان في دوامة الصراع الثلاثي بين الإسبان والعثمانيين والمغاربة في القرن 16م.

أ. د.محمد دادة**

كانت تلمسان وقت ظهور الإسبان والعثمانيين تمثل عاصمة الدولة الزيانية التي عمرت ثلاثة قرون، واجهت ضغوط كل من الحفصيين و المرينيين. وحاولت القوى المتصارعة الاستيلاء عليها، فنشأت عن ذلك صراعات عنيفة عملت على زعزعة أركان هذه الدولة. ولم يستطع التلمسانيون أن يدافعوا عن أنفسهم داخل المدينة، وأن يتحملوا ثقل الضغط الخارجي الذي أخذ ينحو منحى جديدا منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي.

والسؤال المطروح: هل استيلاء القوى المتصارعة على تلمسان استند إلى الأحوال العامة السائدة في هذه المدينة، أم أن هناك عوامل أخرى سمحت لهذه القوى أن تسيطر عليها؟

كانت لمدينة تلمسان دور متميز في التجارة الدولية منذ أقدم العصور، ونالت منطقة المغرب العربي حضا وافرا من تلك التجارة، وظلت هذه الأهمية الاقتصادية قائمة طوال العصر الإسلامي. وهذا ما دفع كل من المرابطين والموحدين والمرينيين للتهافت عليها، وظمها لأملاكهم. زيادة على ذلك أهميتها الإستراتيجية وموقعها المهم، حيث عدت بوابة مهمة بين شرق المغرب الأقصى والجزائر، من يملكها يملك التدخل في عمق المغرب والجزائر. ولكن مدينة تلمسان لن تحافظ على أهميتها، ففي بداية القرن السادس عشر بدأت بالانهيار بسبب تسلط الإسبان عليها، إضافة إلى ذلك فإن الحكام الذين عينوا عليها من قبل الإسبان لم يعملوا على تقويتها وتحصينها، وشيئا فشيئا بدأ الفساد والضعف يسودانها، وبدأت الفوضى تعم مختلف مناطقها.

استغل المغاربة ضعف الزيانيين والصراع القائم بين الأسرة الحاكمة، فتدخلوا في تلمسان ومحاولة احتلالها أكثر من مرة. وكانت تلمسان منذ نشأة دولتها الزيانية عام 1235م، ظلت عرضت

** — أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة وهران.

لغزوات المغاربة من المرينيين الذين حاصروها سنوات عديدة في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وأوائل القرن الرابع عشر الميلادي، ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليها، فتدخلوا فيها من جديد سنة 1337م واستولوا عليها وظلوا مسيطرين عليها مدة احدى عشرة سنة حتى عام 1348م، ثم غزوها سنة 1352م إلى أن تمكن الأمير الزياني أبو حمو الثاني من استعادتها سنة 1359م، وفي عهده استولى المرينيون على تلمسان مجددا سنة 1360م، ثم غادروها، ليعيدوا غزوها سنة 1372م، حيث بقيت تلمسان تابعتا لهن حتى سنة 1374م، حيث تخلوا عنها، لكن نفوذهم فيها لم ينته إلا في سنة 1431م. ولكن منذ 1485م دخلت الدولة الزيانية مرحلة من الضعف والانحطاط حتى أصبحت لقمة سائغة للاسبان و العثمانيين والمغاربة، فدخلت مملكة تلمسان في دوامة الصراع بين هذه الأطراف الثلاثة حتى قضى عليها الأتراك عام 1554م.(1)

استدعى أهل الجزائر بابا عروج للدفاع عنهم، وفي كل مكان يهدده الاسبان. ونجح عروج في سنة 1516م في دخول مدينة الجزائر وتصفية خصمه العنيد الشيخ سالم التومي، لتعامله مع الاسبان(2). ووجه بابا عروج اهتمامه بتوطيد سلطته في الجزائر، ففرض إجراءات أمنية مشددة، إزاء ذلك ازدادت ثقة السكان بالأتراك العثمانيين، واظهروا استعدادهم للتعاون معهم، وقد استطاع العثمانيون كسب ثقة الجميع من خلال معاملتهم الجيدة للأعيان والعلماء والأهالي(3).

كان الوجود العثماني في مدينة الجزائر تهديدا خطيرا لاسبانيا في المنطقة، لاسيما بعد أن عمد التراك العثمانيون بعد تمركزهم في مدينة الجزائر على تشكيل حكومة قوية، يمكنها أن تهدد مصالح اسبانيا في شمال افريقيا. وبالفعل كان بابا عروج يريد التخلص من النفوذ الاسباني في الغرب الجزائري وبخاصة في تلمسان، ولهذا شرع في إعداد القوة اللازمة لانجاز هذا العمل.

واستغل عروج ضعف السلطة الزيانية، ونقمة اهل تلمسان على الأمير الزياني أبي حمو لخضوعه للنفوذ الاسبانيّ، فقرر التدخل في تلمسان بحجة انقاذها من النفوذ الاسباني. وكانت تلمسان قد خضعت للاسبان بعد احتلالهم للمرسى الكبير(1505م) ولوهران(1509م). ولم يلبث الأمير الزياني أن يبعث في سنة 1512م وفدا إلى اسبانيا ليعلن خضوعه وتبعيته للملك الاسباني(4).

ونجح عروج في الاستيلاء على تلمسان سنة 1517م بدون صعوبة، ومما ساعد على هذا النجاح أن أهالي المدينة لم يكونوا راضيين عن حكم بني زيان لهم، وم ينسوا ما فعله أبو حمو بابن أخيه واغتصابه للسلطة منه، وكانوا يدركون جيدا حرصه على الارتباط بالاسبان، وهذا ما أدى إلى

كرههم له، إضافة إلى أنه أثقل كاهلهم بالضرائب، وغدا الاسبان كأنهم حكام تلمسان الحقيقيين(5).

والتجأ أبو حمو إلى قائد وهران الاسباني ثم إلى بلاط ملك اسبانيا لطلب عونه. وكان التقرير الذي زوده به قائد وهران له أهمية في فهم التحرك الاسباني في المنطقة. وقد أكد هذا التقرير على ضرورة احتلال تلمسان، أو إقامة حكومة عربية فيها موالية للعرش الاسباني. وتضمن هذا التقرير الإستراتيجية الاسبانية في ضرورة طرد الأتراك العثمانيين من تلمسان وربطها بهم، حتى يتعزز الوجود الاسباني في المنطقة الغربية من الجزائر، ومن ثمة يتسع نفوذ اسبانيا ليشمل كافة السواحل الإفريقية. وقد اقتنع المجلس الملكي الاسباني بأهمية السيطرة على تلمسان، ولذلك قرر الملك إرسال قوة عسكرية إلى وهران مؤلفة من عشرة آلاف جندي(6).

ولم تفلح جهود عروج في البقاء في تلمسان، على الرغم من استعداده للرد على أي حركة تصدر عن الاسبان ومؤيديهم. فقد نجحت القوات الاسبانية بقيادة "دون مارتن" في فرض حصار محكم وعنيف على مدينة تلمسان، ودام الحصار ستة أشهر، وخلال هذه المدة كان القتال يستمر ليل نهار، ولكن الاسبان تمكنوا من السيطرة على نقاط الاستحكام. وفي هذا الوقت الحرج والمؤلم كان عروج ينتظر مساعدة ونجدة المغاربة الذين كانوا يبعدون عنه مسافة عدة أيام. ويبدو أن الأمير الوطاسي لم يكن متحمسا بتحالفه مع عروج ولم يوليه أي اهتمام يذكر، وكان بإمكانه فك الحصار على تلمسان بتدخل جيشه، لأن القوة الاسبانية ليست بالقوة الكافية لمقاومة الجيشين الإسلاميين(7).

وحدثت في هذه الأثناء اضطرابات في تلمسان لم تكن في صالح العثمانيين. وقد ثار أهل تلمسان ضد عروج وأجبروه على اللجوء إلى قلعة المشور. وتمكن الاسبان من الوصول إليه، والقضاء عليه وعلى رفاقه في عام 1518م في موقعة وادي المالح الواقعة بين وهران وعين تموشنت(8). وبعد مقتل عروج أعيد أبو حمو إلى عرش تلمسان، وفرض الاسبان عليه معاهدة مذلة و قبل الخضوع للسيادة الاسبانية(9).

لم يؤد مقتل عروج إلى توقف الصراع على تلمسان. فما من شك في أن كل طرف عرف كيف يستغل الأوضاع المضطربة لمدينة تلمسان والانقسامات التي كانت تعصف بهذه المنطقة، لكن

مهما قيل عن تصرفات عروج في تلمسان، فإنه نجح في توجيه ضربة قوية للنفوذ الاسباني، وفي إضعاف الأسرة الزيانية، وفي رسم الطريق لخلفائه لإقامة نظام جديد في مواجهة الاسبان.

خلف عروج خير الدين في زعامة القوات العثمانية، وجعل مركزه مدينة الجزائر. وكان وضعه في غاية الصعوبة، حيث خشي تدخل الإسبان الذين كان بإمكانهم أن يستثمروا نجاحهم فيهاجموا مدينة الجزائر ويطردون خير الدين وقوته البسيطة وظل الموقف الداخلي حرجا، بعد رجوع الأمير الزياني إلى عرش تلمسان الشاغر، فبدأ هذا الأمير يحرض القبائل ضد العثمانيين مستعينا بالاسبان.

أدرك خير الدين أنه لن يستطيع أن يجابه الموقف بقواه الخاصة، ولن يتمكن من مجابهة الخطر الاسباني ة الخطر الزياني بقوات قليلة، وأدرك أيضا أن عليه أن يعتمد على قوة الدولة العثمانية ليحصل على الهيبة والقوة التي تسمح له بالسيطرة على المغرب الأوسط، فقرر الاستعانة بها، وكانت آنذاك في أوجه قواها(10).

وفي الوقت الذي كانت فيه تلمسان تعاني من التمزق السياسي، بسبب منافسات الأسرة الحاكمة ودسائس البلاط الزياني، وتدخل الاسبان في شؤونها، كان خير الدين يبحث عن وسيلة للتدخل في شؤون تلسمان التي لم تتغير أوضاعها، فقد ضجر سكانها من تصرفات الحكام الزيانيين، وبدأت الأغلبية منهم تريد الاتصال بالأتراك العثمانيين من أجل إنقاذهم من الطغيان الزياني. وكان هذا التدخل في بادئ الأمر، حينما أعان الأمير الزياني المسعود على انتزاع الملك من أخيه عبد الله، ولكنه لم يلبث أن تمرد عليه، و حين إذ أعان عبد الله المخلوع على انتزاع الملك من أخيه المسعود، بشرط أن تكون السكة و الخطبة للسلطان العثماني. إلا أن عبد الله ما لبث هو الآخر أن تمرد على خير الدين ومال إلى الاسبان، فحاربه خير الدين وانتصر عليه، ولكنه عفا عنه وأبقاه في ملك تلمسان، و تعهد له عبد الله بمضاعفة ضريبة التبعية. غير أنه ما لبث أن تقرب مرة أخرى من الاسبان و تحالف معهم. فحرضه هؤلاء على الثورة ضد خير الدين وأمدوه بالمال و العتاد، ووجهوا إليه أربع عشرة سفينة لمساعدته واتفقوا معه على أن يهاجم مدينة الجزائر من البر، في حين تهاجمها السفن الاسبانية من البحر، وكان ذلك في سنة 1533م(11).

وتحرك عبد الله على رأس قوات كبيرة من تلمسان نحو مدينة الجزائر، إلا أن خير الدين تمكن من تحقيق الانتصار عليه قبل وصوله إلى الجزائر. واضطر عبد الله إلى طلب العفو، فعفا عنه خير

الدين ورجع إلى مدينة الجزائر. ويبدو أن هذا الأخير كان يريد الرحيل إلى اسطنبول لم يشأ أن يدخل تغييرا على الحكم في تلمسان قد لا يساعد على استقرار الأمور في الغرب الجزائري(12).

تأثر حسن آغا خليفة خير الدين في الجزائر من الأحداث الدائرة على الساحة الجزائرية، و التحركات الزيانية المعادية للعثمانيين. ففي عام 1535م تعهد محمد ابن عبد الله أن يكون تابعا للملك الاسباني "شارلكان" وأن يدفع الضريبة له بل وأبدى استعداده لأن يحارب الأتراك العثمانيين ويقبض على خير الدين إن التجأ إليه بعد هزيمته ويسلمه إلى الاسبان. إلا أن الإمبراطور "شارلكان" لم ير ضرورة فيما يبدو لتوقيع معاهدة مع سلطان زياني لا حول له ولا قوة ، متذبذب الولاء، في الوقت الذي كان فيه أخوه عبد الله اللاجيء عنده مستعدا للتنازل عن كل شيء مقابل أن يجلسوه على كرسي الملك في تلمسان(13).

وبما أن الأحداث جرت بعكس ما كان يتوقعه الأمير الزياني اضطر الامبراطور"شارلكان" إلى الحذر منه. و يبدو أن سنة 1541م، التي شهدت انكسار حملة "شارلكان" في الجزائر، هي التي ستهيأ الجو لإعادة العلاقات الماضية.

لم يتحمل حسن آغا تصرفات الأمير الوياني أثناء حملة "شرلكان" على مدينة الجزائر.فتحرك سنة 1542م إلى تلمسان لإخضاع محمد ابن عبد الله الذي انتقل إلى صف الاسبان. ولكن قام هذا الأخير باسترضائه، و تعهد له بقطع كل صلة مع الاسبان، فقفل راجعا إلى مدينة الجزائر دون أن يترك في تلمسان حامية عسكرية كما كان يعتزم أن يفعل(14).

لكن ما إن عاد حسن آغا إلى مدينة الجزائر حتى اضطربت مدينة تلمسان من جديد، فقد اشتكى أعيان المدينة إلى الأمير الجديد الذي نصبه الاسبان من الأفعال المفسدة التي ارتكبها الاسبان في مدينتهم أثناء حملتهم عليها في 27يناير1543م. إلا أن الاسبان كانوا حريصين على عدم استقرار الأمور في تلمسان للأتراك العثمانيين أو للأمراء الزيانيين الموالين لهم، ولذلك فإن الأمير الزياني محمد ابن عبد الله الذي استرجع ملكه من أخيه عبد الله، ما لبث أن أطاح به أخوه الآخر أحمد، الذي كان يدعمه خاله المنصور ابن أبي غانم الموالي للاسبان، مما جعل حسن باشا ابن خير الدين أن لا يتأخر كثيرا عن المسير إلى تلمسان لإزاحة أحمد عن الحكم(15).

وقد تمكن حسن باشا في بداية جوان 1545م من الدخول إلى مدينة تلمسان دون أن يجد مقاومة تذكر، لأن ملكها الزياني فر إلى حلفائه في وهران، لما علم بقدوم الأتراك إليه. بعد أن عين حسن

باشا الأمير التابع له وهو أحمد، عاد إلى مدينة الجزائر غير أن الاسبان في وهران أعادوا الملك المخلوع سنة 1546م(16). وسار حسن باشا بدوره نحو تلمسان للحيلولة دون تحقيق غرضهم، إلا أنه حدث في هذه الأثناء أن وصله نبأ وفاة والده خير الدبن مما أثر فيه، فرجع إلى مدينة الجزائر دون أن يصطدم بالقوات الاسبانية.

وفي الوقت الذي بدأ فيه وكأن أمر تلمسان قد انتهى لفائدة العثمانيين، إذ بالأشراف السعديين الذين قضوا على الدولة الوطاسية واستكملوا توحيد المغرب، يوجهون أنظارهم لضم تلمسان إلى ممتلكاتهم، وتمكنوا من احتلالها سنة 1550م. ولكن قوات حسن باشا تمكنت من إجلائهم عنها في *السنة التالية بعد صراع عنيف، وإبعادهم إلى ما وراء نهر الملوية*(17).

وإزاء هذه الأوضاع، وتدخلات الاسبان والمغاربة قرر حسن باشا سنة 1551م تعيين قائد عثماني في تلمسان، وأن يقيما فيها حامية عسكرية، فوضع بقراره ذلك نهاية حكم الأسرة الزيانية(18).

لما استدعيا حسن باشا ابن خير الدين إلى اسطنبول استخلفه على الجزائر صالح رايس في عام 1552م. وقد عمل صالح رايس في بداية الأمر على تجسين علاقاته مع حكام المغرب السعديين، و توصل إلى اتفاق سلام معهم لم يدم طويلا. وكان الهدف من هذا السلام هو التفرغ للاستيلاء على وهران وإخضاع المنطقة الغربية من الجزائر. وبالفعل تمكن من الاستيلاء على مدينة تلمسان سنة 1554م وإنهاء الحكم الزياني نهائيا في تلمسان. ولكن لم يحالفه الحظ في ذلك و توفي فجأة سنة1556م. وشهدت الجزائر بعد ذلك اضطرابات سياسية بسبب الصراع حول الحكم، و كانت هذه فرصة ذهبية للسعديين والاسبان للتدخل في الغرب الجزائري وتحقيق أطماعهم في تلمسان. وبالفعل شن محمد الشيخ السعدي حملة على تلمسان في جوان 1557م، وتمكن من احتلالها بسهولة ولكن لما علم محمد الشيخ بزحف القوات العثمانية إلى تلمسان، آثار فك الحصار على حامية تلمسان في أوت 1557م قبل وصول القوات العثمانية والانسحاب إلى المغرب(19).

ولم يغفر حسن باشا لمحمد الشيخ السعدي تدخله في تلمسان فصمم القضاء عليه، والتخلص منه وعمد إلى المؤامرة، فأرسل جماعة من الجند العثماني دخلوا المغرب مدعيين أنهم هاربون من الجيش العثماني و نجحوا في كسب ثقة محمد الشيخ ثم قاموا باغتياله في شهر أكتوبر 1557م. وهكذا كان مصير محمد الشيخ الذي رفض الدخول تحت السادة العثمانية، ورفض السلام مع العثمانيين، ومضى في التقرب مع الاسبان وانتهاز الفرصة للتدخل في الغروب الجزائري، والتآمر مع الاسبان

للقضاء على العثمانيين في شمال افريقيا مما جعل العلاقات بينه وبين العثمانيين يغلب عليها طابع التوتر والعداء أكثر من طابع الديبلوماسية. وبدأ عبد الله عهده بالانتقام من العثمانيين قتلة والده محمد الشيخ. وكان رد فعل حسن باشا على ذلك بالإقدام على شن حملة على المغرب في عام 1558م، انتقاما لحملة السعديين في الغرب الجزائري. وكان الصدام عنيفا بأحواز فاس، وكانت الخسائر كبيرة من الطرفين. واضطر حسن باشا إلى الانسحاب من المعركة(20).

كان حاكم وهران "دالكوديت" ناقما لفوات فرصة ضرب حسن باشا من الخلف حين كان يهاجم المغرب، وذلك بسبب نقص قواته. وكان "دالكوديت" يدرك أن استرجاع الأتراك لتلمسان يهدد الوجود الاسباني تهديدا خطيرا، فقرر الاستيلاء على مستغانم التي جعلها الأتراك قاعدة لهم للهجوم على وهران. وفي هذا الإطار، اعتمد على تأييد المغاربة له، واتفق مع السعديين على أن يهاجموا الأراضي الجزائرية والاستيلاء على تلمسان. وقد استغل عبد الله الغالب الصراع بين العثمانيين وزعماء القبائل من بني عباس، للتحرك نحو تلمسان. وكان حسن باشا قد علم أن السلطان السعدي يستعد لغزو تلمسان وأن ملك اسبانيا هو الآخر يجمع قوة بحرية للهجوم على العثمانيين بالتنسيق مع المغاربة. ولكن الهزيمة الساحقة التي لحقت بالاسبان في مستغانم أفشلت مخطط الاسباني المغربي. و منذ ذلك الوقت امتنع الاسبان عن القيام بعمل هجومي على تلمسان واكتفوا بالدفاع عن وهران التي أصبحت منطقة محاصرة(21).

وفي الوقت الذي كان فيه حسن باشا يعد حملة على السعديين في المغرب، كانت الإنكشارية قد اعتقلته وأرسلته مقيدا إلى إسطنبول في جويلية1561م بدعوى أنه كان يريد الاستقلال عن السلطان العثماني(22). إلا أنه بعد رجوعه إلى الجزائر للمرة الثالثة في سنة 1562م، استأنف مشاريعه السابقة ضد الاسبان و المغاربة. وكما يبدو لحسن باشا أن التحالف المغربي الاسباني كان ما يزال مستمرا، و أن المغاربة حارصون على طرد العثمانيين من شمال إفريقيا. ولعل في هذا محاولة من السعديين لإحياء تقاليد الدول التي سبقتهم في محاولة بسط سيطرتهم على المنطقة المغاربية. وإن الخطة الإستراتيجية هي القضاء على سلطة الزيانيين، وضم ممتلكاتهم، لتأمين حدودهم الشرقية من الأخطار العثمانية التي تهددهم بها وجود الزيانيين إلى جوارهم.

ومما يلاحظ على هذه الفترة أنها لم تشهد تعاونا بين العثمانيين و المغاربة، بل اتسمت في الكثير من الأحيان بالعداء و الفتور بين الطرفين، لأن الثقة كانت دوما مفقودة. غير أن الصراع على

الحكم في المغرب بين الإخوة هيأ للعثمانيين بالتدخل في شؤون المغرب. ففي سنة 1574م توفي عبد الله الغالب، فخلفه ابنه محمد المتوكل، ولم يتمتع هذا الأخير بالملك طويلا، لأن عمه عبد الملك الذي كان لاجئا في الجزائر مع أخيه أحمد، طالب بحقه في الملك، ورحل إلى إسطنبول، فطلب من السلطان العثماني المساعدة على العودة إلى المغرب وخلع ابن أخيهما محمد المتوكل. وتعهد الأمير السعدي بدفع تكاليف الحملة ووعد أن يكون المغرب تابعا للسلطان العثماني(23).

وتصادف هذا الحدث مع الانتصار الباهر الذي حققه الأتراك على الاسبان في تونس سنة1574م، وقد شارك كل من عبد الملك وأحمد فيه، إلى جانب علج علي. استغل العثمانيون هذا الانتصار وصداه في كل بلاد المغرب ليجهزوا حملة كبيرة ضد محمد المتوكل، هدفها تنصيب عبد الملك على عرش المغرب.

نجح عبد الملك بدخول فاس بمساعدة العثمانيين سنة 1576م. ولكنه سرعان ما تنكر للأتراك بعد عودة الحملة التركية إلى الجزائر. وبينما كان الأتراك يعدون حملة جديدة ضد المغرب فاجأهم نبأ الانتصار الصاعق الذي أحرزه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة1578م، فتخلوا عن مشروعهم. ولكن ما يهمنا في هذا الموضوع، أن عبد الملك طبق سياسة مخادعة مع الأتراك والاسبان، متجنبا إثارة المتاعب معهما، فقد عمد فور استلامه السلطة إلى الاتفاق مع ملك إسبانيا في توحيد الجهود ضد العثمانيين. وفي الوقت الذي كان فيه الملك يفاوض الاسبان كان على اتصال مستمر مع الأتراك، يعدهم بعدم التدخل في تلمسان و بالتخلي عن سياسة التحاف مع اسبانيا(24).

أعطى انتصار وادي المخازن للمغرب و للسلطان الجديد أحمد المنصور هيبة و سمعة دولية استند إليها المنصور في سياسته الخارجية واستفاد منها. فقد نجح في تجنب الغزو العثماني لبلاده بالوسائل الدبلوماسية. وكانت الظروف الخارجية مواتية للمنصور، فقد كانت أوروبا تعيش في فترة صراع دولي بين اسبانيا من جهة و انجلترا و فرنسا و البلاد المنخفضة من جهة أخرى. وقد أثرت هذه الحروب على نشاط اسبانيا في إفريقيا الشمالية. كما كانت الدولة العثمانية مشغولة في أوروبا في صراعها مع إيران، وفي اضطرابات البلاد العربية، ولم يعد بإمكانها مساعدة الجزائر في تهديد المغرب كما كان ذلك في السابق. وفي مثل هذه الظروف كان المنصور في وضع يجعله أكثر حرية في اختيار حلفائه وفق ما تقتضيه ظروفه ومصالحه. وكان يستخدم اسبانيا ضد الأتراك والعكس. وكانت مصلحته أن يداري ويداور الجميع دون أن يتورط بالالتزام مع أحد.

سار السلطان أحمد المنصور في سياسته السعدية التقليدية نفسها وهي سياسة المحافظة على التفاهم مع الاسبان و كذالك مع الأتراك، وتجنب الدخول في حرب مع الدولة العثمانية. ولهذا كانت الجزائر باتت تتحضر جانب المنصور، الذي بات على درجة كبيرة من الحنكة الدبلوماسية. وكان السلطان العثماني على علم بالتقارب بينه وبين البلاط الاسباني. ولكن لم يكن لدى المنصور السعدي الوسائل اللازمة ليندفع إلى احتلال تلمسان. وكان جل اهتمامه منصرفا إلى استرجاع الموانئ المغربية التي يسيطر عليها الأوروبيون(25).

كانت السنوات الأخيرة من حكم المنصور مضطربة جدا، فقد انتشر الطاعون وتعطلت الزراعة وتلا ذلك مجاعة مخيفة. توفي المنصور سنة1603م تاركا البلاد لمصير مظلم. هل سيستمر خلفاؤه في مهاجمة تلمسان، وإتباع سياسة التفاهم مع الاسبان؟ أم سيحرصون على إبقاء الصلات الودية مع جيرانهم الأتراك؟

هكذا، يظهر أن أطماع الأطراف الثلاثة المتنازعة في الاستيلاء على تلمسان قد استند، قبل كل شيء آخر، إلى الأحوال العامة السائدة في هذه المدينة، إذ كانت هذه الأطراف قد اعتمدت في تدخلاتها على ضعف الإمكانات العسكرية و الاقتصادية لهذه المدينة. زد على ذلك انفصال هذه المدينة، مما شجع التدخل الخارجي وعجل به، وفي الوقت نفسه زاد هذا التدخل في الضعف وخلق مضاعفات خطيرة في المنطقة. ومن أخطر هذه المضاعفات وقوع الاضطراب في المعسكر الإسلامي. ويبدو أن السعديين كانوا يريدون احتلال تلمسان التي هي قريبة من فاس، وإذا تحقق لهم ذلك فهذا يعد مكسبا كبيرا لهم، يضع تحت أيديهم المراكز التجارية المهمة في مملكة الزيانيين ويوسع حدودهم في الناحية الشرقية من المغرب. ولكن هذا كان على حساب سكان المنطقة الذين كانوا يتطلعون إلى توحيد الجهود بين البلدين الإسلاميين لإزالة الاحتلال الأجنبي الذي أضعفهم وأنهك قواهم. أما تلمسان، فكانت تصارع للبقاء، ولكن أمرها انتهى لفائدة حكومة الجزائر العثمانية.

الهوامش:

[1] لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر: شارل أندري جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، من الفتح الاسلامي إلى سنة 1830م، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1978م/رشيد بوروية وآخرون، الجزائر في التاريخ، الجزء الثالث، العهد الاسلامي، من الفتح إلى العهد العثماني، الجزائر، 1984م.

2- Diego De Haedo: histoire des Rois d'Alger, éditions grand-Alger-Livres, Alger 2004, p29

3- عزيز سامح آلتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م، ص53.

4- عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن السادس عشر، الجزء الأول، دار الأمل، الجزائر، 2006م، ج1 ص17.

5- عزيز سامح آلتر، المرجع السابق، ص60.

6- Diego De Haedo: op. cit, p39.

7- بعد نجاح عروج في تلمسان، شرع في إجراء مباحثات مع الأمير الوطاسي في فاس للتعاون معه ضد الاسبان، ولكن "دو غرامون" يشك في قيام هذا الحلف دون أن ينفي إن كان وجود مشروع تحالف لم ينفذ لأن وجود الأتراك على حدود المغرب أكبر خطرا من وجود الاسبان العاجزين عن أي تهديد للمغرب. انظر: محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، دار الشرق، بيروت، ص26. H-De Grammont : Histoire d'Alger sous la domination turque, paris,1887, p25.

8- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا(1492م-1792م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م ص192.

9- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص22.

10- أصبحت الجزائر ولاية عثمانية بتاريخ 925هـ/أوائل نوفمبر 1519م، انظر: أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م في المجلة التاريخية المغربية، عدد 6، 1976م تونس، ص 119.

11- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص25.

12- نفسه، ص26.

13- نفسه، ص32.

14- Diego De Haedo : op. cit, p73.

15- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص34/ Diego De Haedo : op. cit, p82

16- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي(1514/1830)، دار هومه، الجزائر، 2005، ص72.

17- محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2000م، ص40

18- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص36.

19- H.Terrasse. Histoire du Maroc, tome2, éditions ATLANTIDE, Casablanca, 1947, p171.

20- إبراهيم شحاتة حسن، أطوار العلاقات المغربية العثمانية(1510م-1947م) مطبعة القدم، الإسكندرية، 1981م، ص152/ Diego De Haedo : op. cit, p124.

21- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مكتبة دار الشرق، بيروت، 1969، ص44-45.

22- DIEGO De HAEDO : op. cit, p130.

23- عزيز سامح آلتر، المرجع السابق، ص236.

24- H.Terrasse. op cit, pp185-186.

25- عمار بن خروف، المرجع السابق، ص ص231-238/ H-De Grammont- Op cit- 139-140